ظنوا أن للكلمات وجودا مستقلا عن مستعمليها . إن الكلمات فى البلاغة وعند الشراح لم تكشف كشفا ملائما لأننا فتنا بلفظ المطابقة الذى يعبر عنه العقاد بطريقته أو مجازه الخاص حين يذكر المصورة الشمسية . إن الكلمات حياتها ومعانيها هى حياة الوعى الإنسانى ذاته . ومن المحقق أن هذا قد غاب عن صناع المعجم وصناع البلاغة فى بعض الأحيان على الأقل . لم يكن هذا المبدأ واضحا وضوحا نظريا كافيا .

(٩)

إن حياة الكلمات هى نشاط وعينا . وإذا ذكرنا الوعى عدنا الى هموم العقاد السالفة التى كان يرمز اليها بأساليب متفاوتة ، هذا النحو من النظر لايجعل لهدير الموج أو هدير الفحول معنى متميزا من نشاطنا النفسى ، إننا دأبنا على أن نعزل الكلمات عن مواقفنا ، أو أن نتصور أن مواقفنا متميزة من معانى الكلمات ، وطبقا لهذا الدأب نعود فى معرفة معانى الكلمات إلى حالة وهمية نسميها باسم الأشياء أو الإشارات النقية . ليس هناك إشارة نقية . فضلا على أن الشعر كثيرا مايستغنى عن هذه الإحالات (الوهمية) . فاذا ربط أبو الطيب بين الموج والفحول فليس يعنى من ذلك أن الموج يشبه هدير الفحول ، الواقع أن الموج والفحول لايتشابهان ، ولذلك كان الربط بينهما فعلا ذاتيا أو وعيا خاصا . كذلك الحال فى اللحم وهداب الدمقس ، فهما لايتشابهان ، ومثل هذا كثير ينم عن خطأ أساسى فى البلاغة العربية فى موقفها من معانى الكلمات وتفسير الترابط بينها ، ألح العقاد على أن الكلمات ليس لها فى معظم الأحيان معنى مستقل عن وعى الإنسان ، فهداب الدمقس فى قول امرىء القيس :

وظل العذارى يرتمين بلحمها .. وشحم كهداب الدمقس المفتل

لا وجود له بمعزل عن نظرة الآكل أو نهمه أو التذاذ . لذلك كله يزعم العقاد كثيرا أن الكلام فى الطبع والصدق يختصر فى الحقيقة فلسفة فى معانى الكلمات ، الكلمات هى ترجمة لوقع الشىء كيف يكون ، أو هى الإحساس به كيف يحيك فى النفوس ، وماعدا هذا الوقع خدم له . لذلك كان الفصل بين الكلمات والوعى أدل على الخطأ . ولكن هذا الوعى ليس فعلا ذاتيا محضا ، إنما هو خلاصة التقاء ومواجهة ، وغالبا مايتم الخطأ فى شرح معانى الكلمات بواسطة تكبير المسافة التى